لبنان أمام تصلب المعتدلين

غسان سلامة *

الحياة ٩٦/١/١٦

الأسطر الآتية هي الحلقة الاولى من مراجعة شاملة (٤ حلقات) للاحداث الاخيرة في لبنان والوجهة التي قد تؤول اليها.

■ «انه لا يريد الاصلاح»، كان هذا حكم عدد من القيادات الاسلامية المعروفة باعتدالها، على البطريرك الماروني، بعدما كانت هذه القيادات قد علقت الامال الكبرى على رؤية سيد بكركي يلعب الدور الاول في اخراج لبنان من ازمته الدستورية المستعصية. وقد بدأ هذا الاحباط يتفاعل في الجزء الغربي من العاصمة عندما عمد البطريرك الماروني الى ارسال لائحة بالمرشحين الرئاسيين «المقبولين» الى سورية عبر الحكومة الاميركية، مما فسره غير زعيم لبناني مسلم، بتجاهل «مقصود» للزعامة الاسلامية، وبالعبور فوقها للكلام (غير المباشر) مع سورية، كما فعل بشارة الخوري في السابق مع مصطفى النحاس متناسياً رياض الصلح، وفؤاد شهاب مع عبدالناصر متجاوزاً سلام وكرامي وجنبلاط وغيرهم.

وتفاقم الاحباط عندما اطلع هؤلاء الزعماء المسلمون على الاسماء الواردة في لائحة البطريرك. فبدا لهم ان صفة «مقبولة» قد تم تحوير معناها فهي كانت تعني في قاموس الديبلوماسية الاميركية، كما وصل اليهم، لائحة مقبولة من شطري العاصمة، لا من جزئها الشرقي فحسب. وهنا انتقل الانتقاد من التجاهل العملي (بانعدام التواصل والتشاور حول الاسماء) الى التجاهل الذهني. اذ تساءلت قيادات الشطر الغربي بالحاح: ان كان البطريرك لا يريد اشراكنا في وضع الاسماء، فلماذا، على اقل الاقل، لا يأخذ اراءنا وافكارنا في عين الاعتبار عند وضعه للاسماء، حتى لو لم يشاورنا بها؟

وتعاظم الاحباط فعلا عندما جاءت سلسلة التصريحات الصادرة عن بكركي في الاسبوع الاخير من السنة، تؤكد على ان المشكل الاساسي في لبنان متعلق بتدخل القوى الاجنبية، وان مسالة الاصلاح هي مسألة في النهاية ثانوية ويسهل التفاهم عليها لو تم وقف التدخل الخارجي.

كان هذا فحوى عظة البطريرك في الميلاد، ولكن الكلام هذا كان اوضح في بيان البطاركة والمطارنة الكاثوليك قبل الميلاد بيومين. وهنا خلصت قيادات الغربية الى القول ان البطريرك كشف عن قناعاته الاساسية التي لا تختلف عن قناعات ميشال عون وسمير جعجع، او انه قد انتهى، بعد تحفظ ليتبنى هذه القناعات بعد ان كان اميل لنقدها ونبذها، او ان قناعاته ما زالت تلك التي عرف بها في السابق، ولكنه خضع في الحقيقة «لضغوط تحالف عون - جعجع»، فما كان له إلا الرضوخ وبكركي ما في يدها سلاح!

والواقع انه في موقف بكركي تصلب، وفي موقف منتقديها تصلب ايضا. وكان رياح الاعتدال التي راهن عليها كثيرون خلال الخريف قد تجمدت مع حلول فصل الشتاء. فالمعتدلون شرقاً، وبكركي في طليعتهم، بدوا وكانهم قد توصلوا لاقتناع بان سورية لم تتخذ بعد قراراً فعلياً باجراء الانتخابات وبان الولايات المتحدة، منذ حادثة مخايل الضاهر في اواخر الصيف، لم تعد مهتمة فعلا على مستوى عال (اي سياسي، وليس اداري) باجراء الانتخابات، وان الادارة على الارجح تنتظر تسلم جورج بوش لمهماته قبل الشروع في التفكير بلبنان. بل بدا لهم ان واشنطن قد استعملت بكركي بعض الشيء لتملية «الوقت الضائع» الذي لن يحصل فيه شيء اساساً بين ٢٣ ايلول (سبتمبر) موعد انتخاب الضاهر الذي لم يحصل و٢١ كانون الثاني (يناير) موعد تسلم بوش لمهامه. وكأن الموضوع كان موضوع الهاء اللبنانيين خلال اشهر هي بالضرورة عقيمة. وربما ان هذا الشعور قد ولد احباطاً في بكركي، التي دفعها الاميركيون لتبني لعبة الاسماء، وارسلوا نيد ووكر مرتين الى روما لمقابلة البطريرك في هذا الصدد. فما ان دخلت بكركي في اللعبة، حتى خذلتها واشنطن وتجاهلت نشاطها واعمالها.

وفكرة اشتراك بكركي في لعبة الاسماء لم تكن في الاساس اميركية بل فرنسية. ذلك ان الوفدين الفرنسيين المتتاليين اللذين زارا بيروت في اواخر الصيف عادا الى باريس بالانطباع نفسه، ومفاده ان موارنة البنان لا قيادة سياسية مقبولة لهم، الا في بكركي. فالعزل ما زال هو السياسة المعتمدة تجاه «القوات اللبنانية»، والجيش على رأسه قائد يبدو انه مرشح لرئاسة الجمهورية مما يقلل من امكانات تصرفه كبديل مقبول اما القيادات السياسية التقليدية فهي اصبحت غير فاعلة ان بسبب وفاة رموزها المهمة (مثل كميل شمعون وبيار الجميل)، او بانتهاء ولاية امين الجميل بالصورة التي انتهت بها او لتعدد المرشحين بين الاعيان الموارنة مما يصيب بالشلل طبقتهم بأسرها. من هنا لا مجال لبناء تفاهم داخلي الا في بكركي ومن خلالها، وفي بكركي رجل مشهود له بالاعتدال والوطنية.

وتلقفت واشنطن الفكرة بعد اسابيع من التحفظ عليها، كما ان الفكرة اعجبت غير طرف عربي، بدءا بالرياض. لكن بكركي لم تكن متحمسة للعب هذا الدور، ولا متسرعة للحصول على الصفحة الاولى من الجرائد. وذلك ان بكركي، وهي تقوم بالدور المطلوب منها، ما انفكت تشكك في جدوى هذا الدور، خصوصا انها لم تحصل يوما على ضمانات اكيدة باجراء الانتخابات من الاطراف القادرة على تعطيلها ويبدو ان بكركي قد ذهبت بالدور (كما فهمته) الى آخره بمزيج من الرغبة في رفع العتب عنها، وبمحاولة اثبات ان الموارنة، والمسيحيين عموماً، ما زالوا، على عكس ما قيل عنهم عشية حادثة الضاهر، يسعون الى لبنان موحد ومؤسسات وطنية واحدة، ورب قائل ان بكركي كانت تجرأت على وضع لائحة مختلفة بالاسماء لو انها كانت متأكدة مئة في المئة ان اجراء الانتخابات امر مضمون ومؤكد. ولكن، تساءل البعض، لماذا المغامرة بتعميق الخلافات شرقاً، وبزيادة الضغوط على بكركي، ان كان عقد الجلسة الانتخابية غير مضمون، وان كان ثمة شعور بأن المطلوب من بكركي ليس تحريك العملية الانتخابية، وانما الإلهاء خلال فترة «الوقت الضائع».

من هنا فتصلب آخر السنة، والتصلب المقابل، كان نتاج احباطين متقابلين غير انه من الخطأ التوقف طويلاً عند هذا المأزق ذلك ان وضع «المعتدلين» في لبنان لا يتحمل المقامرة، وتقديم التنازلات، الا اذا كانت النتيجة مضمونة... ومن يغامر باتخاذ موقف معتدل فعلا، مصيره الفشل والعزلة، ان لم يكن قادرا على تتويج اعتداله بنتائج ملموسة فسر اللعبة الداخلية كما هي جارية الان، هو ان الاعتدال خاسر ان لم تقم الدولة بسرعة. والاعتدال خارج الدولة الموحدة ضرب من الخيال، لانه اعتدال يتيم، لا يحميه احد، ويتكالب ضده الجميع. الاعتدال اذن واعادة بناء الدولة الموحدة، القادرة والعادلة، هما صنوان، فلا دولة تقوم بدون اعتدال يهيء شروط قيامها، ولا اعتدال يستمر خارج اطار شرعية الدولة والاعتدال ان إستمر خارج الدولة، اي في اطار الحرب الاهلية، يؤدي الى تهميش دور المعتدل، او في الاسوأ انتحاره.

من الخطأ اذن، اعتبار التصلب الحالي الذي ضرب مواقف المعتدلين شرقا وغربا، موقفا نهائيا، فهذا التصلب ما هو الا تأقلم مرحلي مع الافق المسدود، ومع استمرار التناحر، فان بدا في الافق مشروع جديد لبناء دولة، عاد المعتدلون عن تصلبهم الراهن، والتحق بهم كثيرون. تلك هي الجدلية الراهنة: الاعتدال يسمح بتصور عودة الدولة، وأفق قيام الدولة يقوي الاعتدال. ومن هنا الخطأ الاكيد بمطالبة المعتدلين، وبكركي منهم، بممارسة الاعتدال المطلق، دون مساعدتهم على اعادة تكوين دولة تحضن هذا الاعتدال. ومطالبتهم بالاعتدال الدائم، كموقف شبه لاهوتي، بينما التناحر والانقسام مستمران، تواطوء فعلي مع ارادة الذين يريدون تهميشهم.

وأبعد من ملهاة الخريف الانتخابية، يبقى السؤال الاهم، وهو يتعلق بهوية الزعامات المارونية. فمع الفراغ الذي طرأ على كرسي رئاسة الجمهورية، ومع غياب الزعماء الذين رافقوا المرحلة الاستقلالية، ظهر في الساحة ثلاثي سياسي قوامه قيادة الجيش، وقيادة الميليشيا، والبطريركية المارونية، بكلام آخر فان السياسة المارونية بدت محصورة في ثلاثة مواقع: عسكرية، وشبه عسكرية، ودينية، ومن الطبيعي جدا ان تسعى هذه المواقع الثلاثة للعب دور سياسي ولكن من غير الطبيعي ابدا الا يتدخل في صنع السياسة المارونية، سياسيون موارنة. هل ان تهميشهم اصبح كاملا؟ هل ان فئتهم سقطت؟ هل ان دورهم انتهى؟

ان الحنين للطبقة السياسية اللبنانية القديمة امر غير صحي (بالنظر لطبيعتها، وقصر نظرها الواضح، واخلاقيات معظم اعضائها)، وغير واقعي (بالنظر لضرورة تجدد النخب الدائم في اي بلد واي ظروف). ولكن الوصول لوقت تجري فيه السياسة بدون سياسيين امر مقلق ايضا قد يتحول عسكري او شبه عسكري او رجل دين الى رجل سياسة ناجح وفعال. ولكن في انتظار هذا التحول، لماذا نتخلى عن فئة من السياسيين المخضرمين، في الاربعين او الخمسين من عمرهم، عرفوا الدولة الموحدة. ويطمحون اليوم الى اعادة بنائها على اسس الواقعية التي تمليها شروط الحرب وما بعد الحرب. وفي الاوساط المارونية بالذات، عشرات من الوجوه الطامحة لدور سياسي، المتمسكة بوحدة لبنان، والواقعية في مجال البحث عن شروط تحقيقها. أوليس هؤلاء السياسيون الموارنة الجدد الرقم الضائع في معادلة السياسة المارونية الراهنة؟